بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

احتلت الأمبراطورية الرومانية مكانة خاصة فى التاريخ، اختلفت عن مكانة غيرها من الدول والأمبراطوريات التى قامت خلال عصور التاريخ. ولا ترجع أهمية هذه الأمبراطورية إلى اتساع رقعتها الجغرافية، التى اشتملت على مواطن أقدم الحضارات التى عرفها الإنسان، إذ ابتدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد، واستمرت باقية إلى القرن الخامس الميلادى فى الغرب الأوربى وإلى القرن السابع فى الشرق، ولكن أهميتها ترجع أساساً إلى أنها وقعت تاريخياً فى نهاية العالم القديم. فقد تعرضت تلك الأمبراطورية منذ القرن الثالث الميلادى لعوامل الضعف والتفكك من داخلها وخارجها، ففى الداخل استشرى الفساد فى جميع النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، ولم تعد روما مركز العالم وحضارته، بعد أن أسس قنسطنطين العظيم عاصمته القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع. ومن الخارج اشتدت غارات الجرمان والمتبربرين على حدود الأمبراطورية، حتى إذا أتى عام ٤٧٦م زالت تلك الأمبراطورية فى الجزء الغربى منها، وقامت على أنقاضها ممالك جرمانية عديدة. وهنا لا ينبغى أن نضع فى الاعتبار الرأى الذى نادى به بعض المؤرخين من أن عام ٤٧٦ يمثل بداية فترة العصور الوسطى بمعالمها السياسية والحضارية التى اختلفت أشد الاختلاف عما ألفته العصور القديمة بأسرها، وإن كنا فى الوقت نفسه نلتمس لهم العذر إذا كان الغرض تسهيل دراسة هذه الفترة الزمنية الهامة، التى امتدت ألف عام، وكانت أشبه بالوادى بين جبلين شاهقين أحدهما يمثل الماضى والآخر يمثل الحديث. والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع حداً فاصلاً – أو تاريخياً معيناً – يؤكد نهاية عصر وبداية عصر آخر، لأن الأحداث التاريخية متداخلة بطبيعتها، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التى انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع

الرومانى، وتأسيس الممالك الجرمانية، والقضاء على الوثنية وظهور الديانة المسيحية، ثم اتخاذها ديانة رسمية للأمبراطورية. ويمكننا أن نلمس فترة الانتقال ونتتبعها برجوعنا إلى الوراء عند مستهل القرن الثالث، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة نحدد بها مطلع العصور الوسطى.

وفى هذا الكتاب تناولت بالدراسة أوضاع الفترة الأخيرة من الأمبراطورية الرومانية، وهى فترة زمنية تميزت بتشعبها وشدة تعقيدها، لما حملته بين طياتها من تغييرات وأحداث هامة، تناولت جوانب التاريخ السياسى والعسكرى والدينى والاجتماعى والاقتصادى. وقد استهدفت من وراء ذلك الوقوف على سمات – أو فجر – العصور الوسطى الأوربية. ولابد لى من القول أن تلك الدراسة قد سبقنى إليها أساتذة ثقاة أجلاء، متخصصون فى تاريخ العصور الوسطى، ومن ثم لا أزعم أنى أتيت بالجديد فيها. فمن الصعب على أى باحث أن يقدم شيئاً فى موضوع طرقه غيره بعناية، وقد يكون التجديد فى الطريقة – أو الرؤية – التى يعالج بها أحداث الموضوع، مع إبراز لنواح لم يطرقها غيره أو مسها مساً خفيفاً. وهو ما حاولت الوصول إليه، وكان من أسباب اختيار عنوان الكتاب على الوجه الذى صدر به.

وقد خصصت الفصل الأول لدراسة «أحوال الأمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع»، فتناولت ما أصاب تلك الأمبراطورية من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها. ذلك أن الفتوحات قد توقفت، وأضحى على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها، وتدهور النشاط الاقتصادى، وتضاءل نفوذ طبقة السناتو، وانحدرت الطبقة الوسطى، وانعدم النظام بين صفوف الجيش، لاسيما بعد أن استعان الأباطرة بالجند المرتزقة، وأدخلوا البرابرة فى صفوف الجيش، مما أدى إلى القضاء على مجد الأمبراطورية الحربى. وقد تناولت فى ذلك الفصل أيضاً التغير الذى طرأ على المنصب الأمبراطورى، والدور الذى لعبته الفرق العسكرية فى تنصيب الأباطرة، بعد أن اختفت السلطة المركزية، وصارت الولايات تحت حكم زعامات محلية. وفى أواخر القرن الثالث وصل دقلديانوس

إلى عرش الامبراطورية، فأدخل بعض الاصلاحات وأعاد تنظيم الجيش، ثم أتى من بعده قنسطنطين العظيم الذى اعترف بالمسيحية من ناحية، ونقل العاصمة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى. ولاشك أن ما قام به كل من هذين العاهلين ساهم فى إنهاء الأوضاع القديمة فى أوربا.

أما الفصل الثانى وعنوانه «المسيحية والإمبراطورية الرومانية»، فقد تحدثت فيه عن الديانات الوافدة من الشرق، وهى كيبيلى من آسيا الصغرى، وميثراس من فارس، وإيزيس من مصر، وأوضحت أن تلك الديانات رغم انتشارها الواسع بين الطبقات الفقيرة والوسطى، إلا أنها لم ترض بعض المثقفين، فاتجهوا إلى المذاهب الفلسفية، خاصة الرواقية التى اتفقت مع تقاليد المجتمع الرومانى. وكان أن ظهرت المسيحية التى أعطت الأمل للمواطنين الرومان، وسط ظلام البؤس الذى أحاط بهم، ولكن التعاليم التى أتت بها تلك الديانة قوضت أركان العالم القديم، فلحق الأذى والاضطهادات بأتباعها، حتى كتب لها النصر فى النهاية. كما ألقيت الضوء على آباء الكنيسة، الذين كان لهم الفضل فى استئصال شأفة الوثنية.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان «المجتمع الجرمانى وعلاقته المبكرة بالأمبراطورية» تناولت فيه عادات ذلك المجتمع وتقاليده، كما وصفها المؤرخ تاكيتوس، وتعرضت لبنائه وجوهر تنظيمه السياسى ودور المرأة فيه. وفى هذا المجال أبرزت تحرك الجماعات الجرمانية من مواطنها الأصلية فيما وراء نهرى الراين والدانوب إلى حدود الأمبراطورية فى القرن الأول، ثم تتبعت غزواتها التى غدت بمثابة ضغوط مستمرة على طول الحدود منذ أواخر القرن الثانى.

أما الفصل الرابع وهو بعنوان «غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوربا»، فقد عالجت فيه أهم الجماعات الجرمانية التى اقتحمت حدود الأمبراطورية الغربية ومزقت أوصالها، وهى جماعات الهون، والقوط الغربيين، والوندال، والألمانى، والبرجنديين، والفرنجة. ثم تناولت كيف ظهرت تلك الجماعات تاريخياً، وعنيت بتوضيح أحداثها، خاصة بعد أن تغلغلت فى أراضى

الأمبراطورية الغربية حتى استطاع بعضها تأسيس ممالك على أنقاض تلك الأمبراطورية فى القرن الخامس الميلادى. والجدير بالذكر أن تلك الجماعات التى تغلبت على الأمبراطورية الغربية اختلفت فى طابعها، فمنها من نشر الرعب والفزع فى أنحائها مثل الوندال، ومنها من انتهى المطاف بها إلى العيش فى وئام مع الأمبراطورية ونهلت من حضارتها مثل البرجنديين، ومنها من أخذت تحركاتها طابع الاستقرار، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على كسب مادى، مثل الفرنجة.

وفى الفصل الخامس والأخير وهو بعنوان «سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى (٤٧٦م)» رأيت أن أبدأ بسنة ٣٩٥م، التى انقسمت فيها الأمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، مما جعل الأحداث فى الشرق والغرب تسير فى طريقين مختلفين. ففى الغرب سيطر القادة العسكريون على مقاليد الأمور، وصار بيدهم تولية الأباطرة وعزلهم، فى الوقت الذى أخذت فيه الشخصيات الرومانية الطموحة تحارب بعضها بعضاً أملاً فى الوصول إلى العرش. وفى ذلك الفصل بينت أن أحداث الأمبراطورية الغربية فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها، لا يمكن فصلها على أحداث الأمبراطورية الشرقية المعاصرة آنذاك. وقد عالجت انثيال العناصر الجرمانية والمتبربرة على إيطاليا سنة ٤٧٦ بحثاً عن الحظ والمغامرة، حتى استطاع زعيم متبربر عزل آخر أباطرة روما وإعلان نفسه ملكاً على إيطاليا. وفى نهاية ذلك الفصل أوردت آراء بعض المؤرخين حول تدهور الأمبراطورية الغربية، وسقوطها فريسة فى أيدى الجرمان.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه...

القاهرة فى ١٩٨١/٢/٣ م
١٤٠١/٣/٢٨ هـ

د. محمود محمد الحويرى